العرب
الأحد 2021/10/31
السنة 44 العدد 12226

على العرب أن يكفوا عن تقديس الثقافة الوطنية

أحمد برقاوي
كاتب فلسطيني

نكتب عن الثقافة الوطنية كي لا نقع أسرى الوهم في أن هناك مؤامرة عالمية تسعى للنيل من الثقافة العربية، وكي لا نسقط في ما يسميه البعض الغزو الثقافي الذي قد يؤدي إلى نوع من التعصب، وتجاهل الملامح القانونية لسيرورة الثقافة والنظر إلى كل فكرة أو أيديولوجيا أو فلسفة أوروبية تمارس تأثيرها على أنه غزو ثقافي أوروبي – غربي، يستدعي التحصن خلف "التراث الأصيل".

لهذا كله لا بد من تأسيس فهم صحيح لمسألة الثقافة الوطنية كي يصار إلى جعلها أداة فهم نظرية من جملة الأدوات النظرية والعملية لفض عالمنا المعيش.

إذا انطلقنا من مفهوم الثقافة كتعبير عن جملة علاقات موضوعية تحدد نمط الحياة أو السلوك، كالعادات والتقاليد والنظرة إلى العالم، فإن العالم الرحب يصنع الفرد من طريقة الطهي وعادات الزواج والتعبير عن الأفراح وطريقة التعامل مع الأتراح، وعلاقات الجوار وفضّ الخصومات اجتماعيا وعادات الثأر وطرق التحية والمعتقدات الدينية.. إلخ.

الثقافة الوطنية هي التي تسعى لإظهار العوامل الجاذبة عبر الخطاب السياسي والفني الجمالي الأدبي والفكري

الثقافة عالم عصي على التغيير السريع، وعلى الرغم من القبول به والسلوك على أساسه، فإنه عرضة دائما للتمرد من فئات اجتماعية تسعى لخلق قيم جديدة بغية التغير في عالم الحاجات وطريقة تلبيتها واختراق الثقافات الأخرى، بما تنطوي عليه من أجوبة على أسئلة الثقافة الوطنية نفسها.

ثقافة، بهذا المعنى، ليست وطنية أو غير وطنية. إنها ثقافة دون أي حكم قيمة، أي ثقافة أمة أو شعب، بل نتحدث عن ثقافة قديمة وثقافة جديدة تشق طريقها ببطء، ومقاومة بعض مظاهرها تدل على أنها لم تعد متطابقة مع حاجات البشر ولا مع مستوى تطورهم، أي لم تعد تتطابق مع مصالحهم.

ليس المجال الآن الدخول في الجانب الأنتروبولوجي للثقافة. حسبي القول إنه علينا ألاّ ننطلق من زاوية رؤية تقدس الثقافة بهذا المعنى الذي أشرت إليه، لأننا في هذه الحالة ننفي عن الثقافة سيرورتها وتناقضاتها ونضفي عليها صفة الجواهر الثابتة التي لا تعرف السيرورة العالمية، أما الحديث عن الثقافة الوطنية فإننا ننتقل إلى صعيد آخر من الثقافة، إنه ذلك النشاط الإنساني المبدع، فرديا كان أم شعبيا، المرتبط بحب الوطن والدفاع عنه ضد الأخطار الداخلية والخارجية، الدفاع عن تقدمه وازدهاره وحريته، ثقافة كهذه تعبر عن نفسها روحيا وعمليا. أي الثقافة هنا تتجسد في القصيدة كما في الرواية وفي الفلسفة كما في العلم.

تتجسد في الطابع الرمزي لأولئك الذين ضحوا بأنفسهم أو عن طريق أفكارهم واكتسبوا صفة الفرادة والبطولة، تتجسد في عالم القيم الذي يخلق الارتباط الحميم بالوطن، وبمشكلاته الحقيقية، إنها ببساطة التعبير الروحي والعملي عن جانب من جوانب الوطن الأساسية.

كيف نعيّن الآن الثقافة الوطنية أو كيف نجعل من الثقافة العربية الوطنية ثقافة وعي متمرد على العالم؟

إن الأخطار والمشكلات التي نواجه ونعاني هي في النهايات التي تحدد خيارنا الثقافي. المواجهة ليست ثقافية فحسب، إنها متعددة الأوجه. وبالتالي ليست الثقافة الوطنية وسيلة لمواجهة ثقافة أخرى، وإنما هي التربة التي تنمو فيها كل أشكال المواجهة والصراع.

فالهوية في مرحلتنا الراهنة تتعرض لشتى أنواع الاختراق القانوني النظرية والعملية، وواقع الدولة يخلق عطالة وتشاؤما كبيرين عسيرين من قيام الدولة، كعنصر أساسي من عناصر تعين الهوية الوطنية ماديا.

بمعنى آخر إن العوامل النابذة للهوية الوطنية حاضرة كممارسة، أما العوامل الجاذبة لها فهي شبه غائبة عن مساحة الفعل رغم وجودها الموضوعي.

إن الثقافة الوطنية هي التي تسعى لإظهار العوامل الجاذبة عبر الخطاب السياسي والفني الجمالي الأدبي والفكري. إذاك فإنها تساهم في خلق المناخ المشترك لفاعلية أبناء الوطن العربي.

وهنا نحدد الثقافة الوطنية كعامل توحيد أو أنها تلك التي تسعى لأن تكون كذلك. تدخل الأيديولوجيا هنا في خانة الثقافة سواء أكانت وطنية أم مناهضة للوحدة الوطنية. عندها سنحصل على منظومة من الأفكار السياسية والدينية والأخلاقية والأدبية والفلسفية.. إلخ متناقضة من حيث أهدافها.

وبالتالي فإن الأيديولوجيا كجزء لا يتجزأ من الثقافة تقوم بأدوار مختلفة من دور الأيديولوجيات الساعية لتأكيد الهويات الما قبل وطنية، أو الطائفية أو العائلية.. إلخ.

لكن الأيديولوجيا الوطنية ليست هي تلك التي تبرز فرادة العرب ودورهم التاريخي وتفوقهم على غيرهم من الأمم، بل تلك التي تبرز العرب كهوية ثقافية لغوية لن يواجهوا مشكلة المصير والمستقبل إلا بوصفهم متحدا إذا ما أريد لهذا المستقبل أن يكون جزءا من روح العصر.

إذا هذه السمة للثقافة الوطنية تجعلها في لحظة أولى نقيضا للثقافة المحلية ومواجهة أشكال التزييف الجاري الآن للتاريخ. وإذا كنا قد حددنا الثقافة الوطنية بذلك النشاط المعبر عن حب الوطن والارتباط به والدفاع عنه، فإنها ثاني سمات الثقافة الوطنية، إنها ثقافة الاستقلال الوطني. وفكرة الاستقلال لا معنى لها إلا في الشروط التي تعيشها أمة وهي مسلوبة الإرادة في تحديد خياراتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وممارستها لهذه الخيارات.

إن الإرث التاريخي الحديث والمعاصر للثقافة الوطنية يكاد ينزاح من ساحة الفعل الثقافي بسبب روح التشاؤم السارية الآن . فالإخفاقات المتكررة خلقت نوعا من الإحباط المرضي، حيث بات معه مناخ الاستسلام هو الطابع السائد، مما أدى إلى انصراف معظم المثقفين المبدعين خاصة عن تقديم فكر التحرر الوطني استجابة لخلق الواقع من القوى الاجتماعية والسياسية المتمردة. فباسم موات الأيديولوجيا والعقلانية وروح العصر والعالم الجديد.. إلخ، وبسبب من زيادة هيمنة قوة السلطة وأجهزتها الإعلامية نشأت الثقافة مقطوعة الصلة بفكرة الاستقلال الوطني، إما باسم أكاديمية ميتة تلبس لباس العلم، أو نزعة فردية تضخمت أناها لتجد لها مكانا في عالم السيطرة واعترافا منه، أو باسم الاعتراف بالأمر الواقع الذي لم يعد يحتاج إلى أوتوبيات.

ولم تكن ثمرة حالة كهذه إلا الانحطاط في جميع مجالات الثقافة بدءا من المقال السياسي مرورا بالمعرفة التاريخية والفلسفية وانتهاء بالأغنية والموسيقى. هذا ناهيك عن المسلسل التلفزيوني، ودعايات السلع التي استبدت بأذواق الأطفال.

إن الحاجة إلى ثقافة وطنية في شروط كهذه، حتى ولو كان الواقع بهذه الصفة الكوميدية – حاجة مستقبل، ثقافة تبقي على الانشداد إلى قضية تنهيها مرحلة عرجاء كالتي نعيش، ذلك أن كل جيل قادم سيعاني من غياب الاستقلال الوطني. وعلينا أن نورث الأجيال القادمة زادا يساعدها على الفعل إن توافرت شروطه تماما، كما نحن الآن نتزود من الأفغاني وعبدالله النديم ونبيه العظمة وعبدالرحمن الشهبندر وسليم خياطة ومهدي عامل.

قلنا إن الثقافة الوطنية هي بالضرورة ثقافة الدفاع عن استقلال الوطن، ولا معنى للاستقلال إلا على أساس الحرية، حرية أبناء الوطن وبالتالي فإن الثقافة الوطنية هي بالضرورة ثقافة تدافع عن حرية المواطن والمجتمع الديمقراطي الذي يخلق نظامه السياسي المعبر عن جماع إرادته الحرة.

من هنا فإن الثقافة الوطنية هي ثقافة تقاوم كل أشكال الاستبداد والاضطهاد، في عموم الوطن العربي ككل، بدءا من الاستبداد السياسي مرورا بالاستبداد الثقافي، وانتهاء بالاضطهاد الطبقي.

وهذه هي السمة الثالثة للثقافة الوطنية، فالوطن ليس مجرد إقامة في بقعة جغرافية محددة، إنه جماع العلاقات التي يعيشها الإنسان في مكان جغرافي محدد والتي تولّد لديه شعور الانتماء والاحتفاظ بهذا الانتماء والإحساس بكرامة الانتماء.

إذا لا انفصال بين الحرية والكرامة، والتناقض هو بين الكرامة والاضطهاد، ولا يحصل الاغتراب بين الإنسان ووطنه إلا حين تصبح الحياة مستحيلة في وطن لا يؤمّن الكرامة والأمن والحرية والخبز لبنيه. إن وطنا يؤمّن كل ما سبق هو فقط الذي يخلق الدافع للكفاح من أجله.

من هنا فإن الثقافة الوطنية ذات جانب سياسي – أخلاقي – قيمي، إنها لا تنطلق من الإنسان المجرد، بل من الإنسان بكل تعينه الثري وطموحه الإنساني. إن مفهوم الالتزام الذي ضاع في معمعان البحث عن الشكل، والذي يتنكر له ومع الأسف الذين كانوا حتى وقت قريب من دعاة الواقعية الاشتراكية، هو مفهوم أساسي من مفاهيم الثقافة الوطنية. علينا أن نغنيه أكثر فأكثر.

إن مفهوم الثقافة الوطنية يحيل مباشرة إلى ظاهرة المثقف الملتزم بالمعنى السارتري للكلمة بإعادة إنتاج تلك القيم التي تؤسس للكفاح الإنساني في سبيل الكرامة والحرية والمساواة، إنها ليست صفات جاهزة للأدب كما حلا لأحدهم أن يقول، بل هي الأشكال المتعينة للمعاناة الإنسانية والتي تظهر بألف لون ولون، فنجيب محفوظ وعبدالرحمن منيف وبدر شاكر السياب وأمل دنقل وغيرهم وغيرهم وهم يجعلون من نتاجهم الفني أداة وعي أرقى بالعالم بالناس، فهم بهذا المعنى ملتزمون.

وما الظاهرة الرحبانية إلا نموذج فذ لوحدة المضمون والشكل المبدع، حيث مارسوا التأثير على سمو الذوق الفني الموسيقي والغنائي من جهة وبارتباط بالحياة من جهة ثانية، فهم في هذه الحالة مظهر أصيل من مظاهر الثقافة الوطنية وفي تعينها الغنائي الموسيقي. وما حضور الكواكبي الراهن إلا دليل على ما نقول.

إن الثقافة الوطنية ليست تلك المنغلقة على ذاتها، إنها الوارثة لكل ما هو إنساني وعظيم في تاريخ الثقافة العالمية وهي السمة الرابعة لها. إنها لا ترفض الآخر بدواعي التمايز القومي، بل على الضد من ذلك.

إن حبنا لفولتير وفيخته وماركس وغرامشي ودستويفسكي وتشيخوف وماركيز بكل ما ينطوي عليه إبداعهم من جانب إنساني يتجاوز حدود المكان والزمان، هو جزء أصيل من أيّ ثقافة وطنية تواجه مهمات وطنية – قومية. فواضح أن الثقافة الوطنية تستقبل وبكل ثقة كل تجارب الشعوب المضطهدة، في آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية. لتدرجها في خطابها المتنوع بوصفهم "أبطالا عالميين" إن صح التعبير وفي تجاربهم إثراء لتجارب الآخرين.

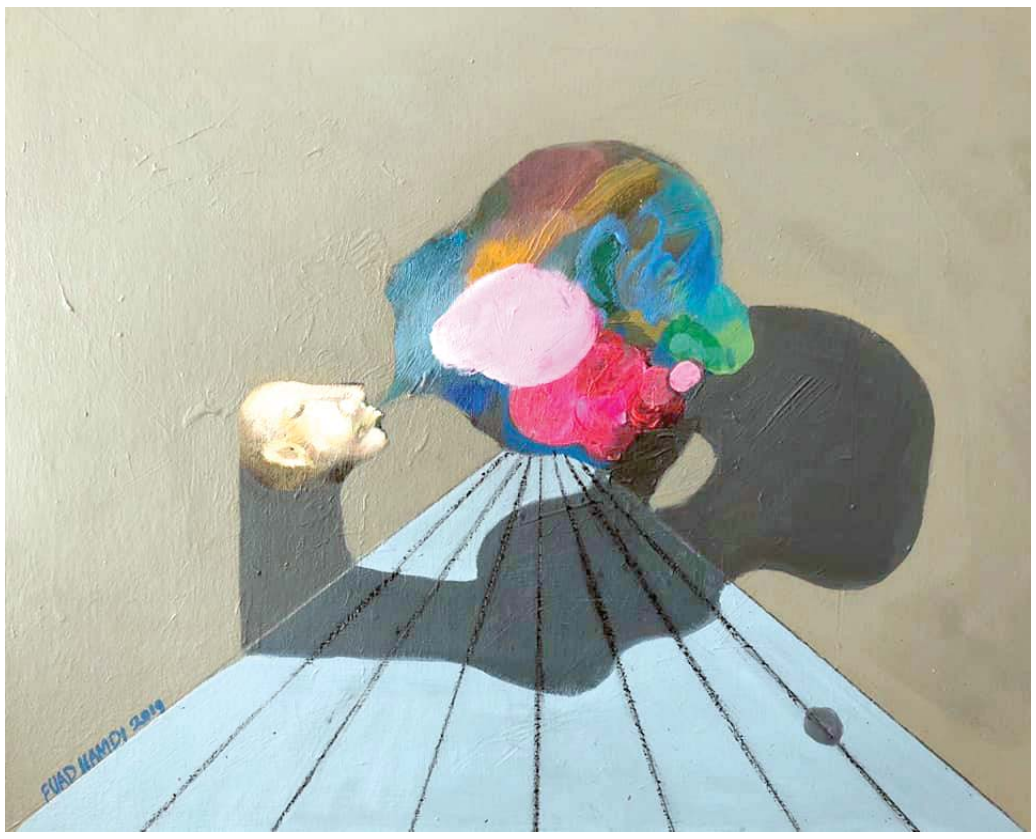

الثقافة الوطنية ليست انغلاقا على الذات (لوحة للفنان فؤاد حمدي)

لماذا قراءة الكتب أفضل من مشاهدة الأفلام

محمد كريم

هل شعرت أبدا، بعد قراءة رواية ما ثم مشاهدة فيلم مبني على أساسها، بخيبة أمل لعدم تطابق ما كنت تتخيله أثناء قراءتك للقصة بالمشاهد السينمائية التي تشاهدها. هذا أمر طبيعي جدا إذا فهمنا كمية المعلومات التي نتلقاها في الحالتين.

دائما يملأ الدماغ المعلومات الناقصة الآتية من الطبيعة من وحي الخيال والتجارب السابقة، فالقراءة تنقصها حاسة البصر والسمع والشم وغيرها لتكتمل صورتها. لذلك يتدخل بمعلومات أخرى (معلومات مشابهة للحدث المقروء) من الخيال ليُكمِل الصورة. أما الأفلام، فلا تنقصها حواس كثيرة، لا يقوم الدماغ فيها بمحاولات لترسيم الصورة المكتملة. هذه الخاصية في أدمغتنا البشرية تعمل أوتوماتيكيا بمجرد الكشف عن نقص في المعلومات المستقبلة من المحيط.

مثلا، عند تخطيطك لرحلة ما إلى مكان لم تذهب إليه من قبل، تبدأ بتخيل سيناريوهات جميلة جدا ورائعة وممتعة، مأخوذة أحيانا من الأفلام والمسلسلات المغامراتية، أو من الصور التي شاهدتها على الإنترنت عن المكان المسافر إليه، لكن سرعان ما تتضاءل تلك الخيالات وتضمحل تدريجيا مع انطلاقة الرحلة. ولا بأس في ذلك، قد تكون رحلاتنا أجمل مما تتخيله عقولنا، آمالنا لا تخيب في بعض الأحيان.

يجدر الذكر أن لكل منا تجارب فريدة عشناها في بيئة فريدة وفي دماغ مميز، عندما أقول لك الكهرباء، ربما ستبدأ بتخيل الأعمدة التي تخرج منها الأسلاك، أو إن كنت داخل المكتب بعملك، تتخيل الأضواء المشتغلة، أو قوانين أوم والتوازي والتوالي إن كنت فيزيائيا. كل كلمة ترسم في عقولنا صورا مختلفة مأخوذة من دوائرنا العصبية التي تشكلت مع طفولتنا الخاصة وتجاربنا السابقة.

بفضل التكنولوجيات تراجعت الخيالات إلى الوراء وأصبحت التجارب التي نشعر بها ليست فريدة ومميزة لكل واحد منا، بل مشتركة وموحدة.

الذين يقرأون الكتب هم مميزون أكثر من الذين يشاهدون الأفلام المستوحاة من كتب معينة، لأنهم يستعينون بمخيلتهم الخاصة وتجاربهم السابقة لملء أحاسيس تكون مجردة في الكتب بينما متبينة في الأفلام ومشتركة عند المشاهدين. وهو الأمر نفسه عند الطلاب، فالطلاب الذين يقرأون الكتب المصدرية ويخرجون خارج ما يشرحه الأستاذ وما يبينه، يكونون أكثر إبداعا من نظرائهم الذين يستعينون بمعلومات الأستاذ وشرحه.

قسمت التقنيات بشتى أنواعها تخيلاتنا وتحاليل عقولنا إلى أربعة أقسام. أولا قسم التخيلات التامة، وهو عندما يبدأ الإنسان بالتخيل في خضم عدمية المعلومات الواقعية المباشرة، كان الإنسان القديم في غياب التقنيات المعلوماتية يتخيل مثل ذلك. وهي تخيلات بحتة مستنتجة من التجارب السابقة والأفكار المميزة والتحليلات الدماغية للمعلومات السابقة. تكون عادة غير مفيدة على أرض الواقع، الغرض منها التسلية، وغير معروف ما الذي يُشغله ويطلق سلسلة أفعاله في دماغ الفرد.

القسم الثاني هو التخيلات الجزئية، إذ يتشبث مخ الإنسان بجزء صغير من الواقع في البداية ثم يقوم برسم الدرب بنفسه وتخيل مساره مستعينا بالمعلومات القليلة المستمدة من الواقع.

بفضل التكنولوجيات تراجعت الخيالات إلى الوراء وأصبحت التجارب التي نشعر بها ليست فريدة ولا مميزة لكل منا بل مشتركة وموحدة

أما القسم الثالث فهو التخيلات شبه المنعدمة، إذ يتراجع الدماغ إلى الوراء قليلا ليعيش التجربة واللحظة، بدلا من إتعاب نفسه بتخيل الظرف أو التفكير فيه كثيرا. مشاهدة الأفلام هي هواية قريبة من هذا القسم حيث ترتخي قدرات الدماغ البشرية ويفقد خياله قليلا ليبصر خيال المخرج وصانع الفيلم. تجب ملاحظة أن الأفلام لا توفر الكثير من الحواس، لذلك يعمل عقل الإنسان قليلا للتفكير في تلك اللقطات التي تفتقر إلى أحد الأحاسيس الرئيسية، مثل الشم. وبعض الأفلام تحث المشاهد على التفكير والتأمل، بالرغم من قدرة الدماغ المفيدة في تلك الظروف.

والرابع هو قسم التخيلات المنعدمة، حيث تحدث نادرا في حالات طارئة ومباشرة لا تتطلب التفكير، مثل اللحظات المخيفة والصادمة التي تمنع الدماغ من الذهاب بعيدا والبدء بالتخيل، أو حتى التفكير والتحليل، ويكون هناك مجال فقط للأساليب والأفعال الفطرية (مثل سحب اليد تلقائيا من السطح الساخن). وفي بعض الظروف النادرة يتوقف الدماغ عن التفكير ويبدأ بعيش الواقع بلحظاته ويتحسس الأحاسيس مباشرة دون فلترة العقل، وهذه تحدث عند المتأملين المحترفين الذين يجذبون انتباههم إلى اللحظة.

قررت أن أجرب هذه بنفسي، فاقتنيت كورسا متوفرا بثلاث صيغ (على شكل كتيب، وصوت، وفيديو)، الكورس هو من موقع The Great Courses، اسم الكورس كان: كتُب التي تهُم: مدينة الإله، مقدم من قبل أستاذ تشارلز ماثيوز.

في البداية، شرعت بقراءة الكتيب، ولاحظت أن خيالي بالفعل قد توسع، كل جملة رسمت صورة معينة في خيالي، صورة عن الحياة القديمة، الحياة التي عاشها القدماء، التي عاشها القديس أوغسطنيوس، تأملت الناس الذين تحدث عنهم القديس، أحسست بأنني على اتصال مباشر مع هذا الكاتب دون حائل يحول بيننا وأنا مُسَلمٌ تفكيري إلى حروفه ليرشدني إلى الصورة الصحيحة مستعينا بتجاربي السابقة الخاصة والمعلومات المميزة المنقوشة في دماغي.

ثم بعدها استمعت إلى الكورس، هنا تغير الأمر، فقد كنت أسمع صوت تشارلز ماثيوز وهو يقرأ الكتيب، أحسست بغرابة لأول وهلة لأني لم أتوقع صوته أن يكون هكذا. لاحظت أنني أركز أيضا على حال الأستاذ القارئ بدلا من التركيز كثيرا على النص، راودتني أسئلة كثيرة عمّا يفكر فيه عندما يقرأ هذا الكتاب أو كيف استطاع انتقاء معلومات مهمة وترك الآخر، أو من أي مكان أتى قبل الدخول إلى الأستوديو وتسجيل صوته. لكنني ما زلت متخيلا للسيناريوهات من خيالي الخاص.

وأخيرا، شاهدت النسخة المصورة من الكورس، ابتعدت أفكاري وتخيلاتي عن العملية أكثر، حيث كنت مركزا على الأستاذ وطريقة تحركه من مكان إلى آخر وطريقة كلامه وملابسه وشكله عامة. كنت أعيش اللحظة مع الأستاذ بدلا من التفكير في الأحداث التي عاشها القديس أوغسطينوس وعما يتحدث عنه في الكتاب. وكانت هناك بعض صور مرسومة لكنها لم تكن كما أتخيلها من محض تجاربي المميزة.

هكذا اتضح لي في النهاية أن قراءة الكتاب كانت أفضل بكثير من مشاهدة الفيديو عنه، لأنه أعطاني تجربة مميزة من خيالي أنا، وربطت المعلومات الموجودة بالفعل في دماغي مع بعضها، وحفزت عندي مشاعر مألوفة بنكهة جديدة في حدث جديد. ولم يحصل هذا مع الفيديو، في تلك النسخة شاركت الرؤية والأحاسيس مع كل من شاهدها.

علينا أن نختار ما هو مناسب لنا بين الأقسام العديدة للتخيلات لكي نقتطف أحسن المعلومات وأنفعها، فليس هناك قسم معين مفيد في شتى الحالات.

هناك أربعة أنواع للخيال أهمها ما تحققه القراءة

ص10 وص11 تنشران كاملتين على الموقع الإلكتروني بالاتفاق مع مجلة «الجديد» الثقافية اللندنية